# الرؤى الانسانية الشفافة في لوحات الفنان تيسير بركات

د. منير توما

*الفن ليس غاية في حدّ ذاتها، بل هو وسيلة لمخاطبة الانسانية، كما أنّ الفن هو الحياة، وحيث نعيش، ونتألم ونجهد .

ليس العالم موجودا لمجرد أن نتحدث عنه، بل لكي نرقبه كذلك، ونحن لا نملك فقط ألسنة لنتحدث بها وآذانا لنسمع، ولكننا نملك عيونا لنرى ونبصر. فالألوان والاشكال تستوقف الانظار بدرجات متفاوتة، والرسام او المثال كالفنان تيسير بركات هنا يحيل أحاسيسه الى استجابات حركية ثم يجسّد تلك الاستجابات على لوحة او في قطعة من الرخام في حالة النحت. وكذلك المشاهد الذي يتأمل عملا من أعمال الفن التشكيلي يستوقفه ويثير اهتمامه ما فيه من قيم تشكيلية مميزة له او بمعنى آخر ما فيه بالفعل مما يهم العين.

أما انّ الفنون التشكيلية تنطوي على قيم أخرى غير تلك التشكيلية، فهذا ما أتيح لنا أن نلحظه في فن الاستاذ تيسير بركات. فالعين هي دائما عين كائن حي . وقد تثير المرئيات الخيال على نحو ما تفعل كلمات النثر او الشعر. فالشكل واللون هما شكل ولون لشيء ما حيث ترتبط الاشياء المرسومة في صورة برصيد العواطف البشرية بأسرها، والعين التي تبصر هي عين كائن حتى ترتبط عيناه بشيء أكثر من مجرد جهاز بصري ، وله اهتمامات غير تلك الاهتمامات الجمالية الخالصة. إنّ الاستمتاع التشكيلي الخالص لصورة يقتصرعلى الخطوط والألوان المنقوشة في لوحة، وعلى الأشكال والكتل في النحت . والألوان لا تبدو لنا في تجربتنا العادية مجرد ألوان تراها العين، بل هي ترتبط بأحاسيس وذكريات سارة او مكدّرة. ويغلب على ألوان الفنان تيسير بركات الألوان الداكنة والغامقة الى حد كبير مما يعكس الحزن حينما يتعامل مع اللون الأسود، وكذلك الحالة النفسية المضطربة والقهر حين يستخدم اللون الرمادي. وفي حالة استخدامه للأسود والبني والظلال البنية الحمراء الداكنة، فانه يعبّر عن أحاسيس وذكريات مترابطة ومتداخلة على نحو تتحدث فيها ألوان الصورة بطريقة مبهمة ذات آثار محتدمة من خلال هذه الترابطات التي لا نكاد نستبينها. فاللون كما تراه العين وما يثيره في الخيال ، كلاهما سمات ضرورية في تأثيرها الجمالي.

وتعكس الكثير من لوحات الفنان تيسير بركات حبّه للحياة وعدم الرغبة في موت الانسان، مع تشديده على المعاناة في أزمنة متقطعة من خلال الألوان الرمادية وذات اللون الداكن التي تربط البشر بالحجر والانسان بالمكان، واسقاط ذلك على معاناة وآلام الشعب عامة والفرد خاصة في ظروف قاهرة عصيبة كظروف الاحتلال مثلا، وذلك بأسلوب تعبيري تجسيمي يجسّد رؤى ذهنية فيها خروج وانطلاق من الحالة الاستاتيكية الى الديناميكية، كذلك توحي لنا لوحات الفنان تيسير بركات بأنه يجسد بفنه رؤى إنسانية عالمية تعكس القهر الذي يتعرض له الانسان الفرد في السجون كما في سجن ابو غريب في العراق مثلا، علاوة على تركيز الفنان ببعض اللوحات والاشكال فيها على قدرة الانسان على التحدي والعمل في سبيل الحركة الحياتية، فهو يرمز في بعض لوحاته الى تعانق الطبيعة مع الانسان من خلال تداخل الفن التعبيري باللون المجسّد للانسان ذي الأصل الترابي الذي يرمز إليه اللون البني أساسا كلون جوهري والرمادي كلون مرافق ومساعد في الوقت نفسه لهذا الايحاء، بالاضافة الى عنصر وجود الاداة الحياتية والحركة المصاحبة لها في حياة الانسان. فالنتوءات اللونية في اللوحات تعكس روحا تفيض بالفكر الحالم المتطلع دائما للابتكار والى عناق الانسان الوجداني مع اخيه الانسان، وكل ذلك من خلال التشظيات الشكلية واللونية في اللوحات حيث يشكل ذلك اسقاطا على نفسية الشاعر التي يكمن فيها التسامي الانساني والتوزع الذاتي على المكان بشيئية فراغية لا تخلو برمزيتها من العواطف الحسية التي تعكسها لوحات العناق الحميمة الداكنة بين بني البشر.كذلك تجسّد بعض اللوحات اغتراب الانسان طوعا وقسرا عن جذوره كما حدث في التاريخ وكما يحدث حاليا في عالمنا عامة ومجتمعنا خاصة.

إنّ التأثير الذي يهدف إليه اللون عند الفنان تيسير بركات هو خلق نوع من التوافق التشكيلي واستحداث جو بصري، ومن ثم تصبح الاشياء المرسومة في التصوير اللوني خاضعة لضوء وصبغة خاصين، كما تصبح عناصر في جو بصري

.

وللخطوط كذلك عند الفنان تيسير بركات تأثيراتها الفرعية مثل الالوان ونحن نتحدث باسلوب دارج عن الاشياء الجميلة فنقول انها "مريحة للنظر" وأن توازن الاجزاء التي تتألف منها الصورة، وتناسقها، وما في الخط المنحني من سلاسة، وما في الخط المستقيم من حسم، كلها تسهم في المتعة الجمالية وتؤدي إليها. وأنّ للانماط الخاصة من الخطوط المثلمة والمتكسرة والمصقولة او المتماوجة، والدوائر والخطوط الاهليجية مثل ما للنغمات العالية والمنخفضة، وأصباغ اللون الحادة، ارتباطات عصبية فريدة.

إنّ العين في لوحات الفنان تيسير بركات هنا لا ترنو الى شيء خارجي وانما هي تتركز على تأملات عرضية داخلية. وتصبح متعة التصوير أدب أولئك الذين لا يعرفون كيف يقرأون. والصورة في اللوحة لا تفقد أصالتها لأن موضوعها وجه طريف من الناحية الانسانية او منظر وجداني قد يجد المرء فيه سلاما وحرية وراحة. وكل ما على الرسام والمشاهد أن يتذكر أن الموضوع ليس هو الذي يخلق الصورة، كما لا يجب على الرسام ان يعتمد على التأثير الانساني في الصورة، كبديل عن المتعة الجمالية. إذ لا بد أن تحقق الاشياء المعروضة في الصورة قيمة تصويرية بذاتها. وهذا ما فطن إليه وفعله الاستاذ تيسير بركات بحرفية وفنية متناهية الدقة. فما هو لطيف من الناحية الانسانية يجب أن يصبح من ناحية التأثير المباشر لكل من اللون والخط بهيجا من الناحية التشكيلية.

والحق أنه ربما جاز القول بأن الاشياء المرسومة في صور لوحات الفنان تيسير بركات أقرب الى ان تكون عناصر حقيقية منها محاكاة صارخة للعالم الواقعي. وهذه الحقيقة ليست سوى التصوير ذاته. ووحدة ذلك الكون المصوّر هي الضوء الذي يغمر الرسام فيه جميع الاشياء التي تقطن ذلك الجزء من الساحة المحدّدة باطار ونعني بها الصورة. إنّ بناء هذا العالم هو في صورة ذلك التوازن المتناغم والتكامل القائم بين الالوان والخطوط والكتل الذي ارتآه الفنان لنفسه وأشرف على تنفيذه.

ولا يفوتنا عند الحديث عن الفن في لوحات الاستاذ تيسير بركات الا أن نشير الى روح الحنين المتجسّدة في رسومات تعكس وجوها رمزية ذات ضبابية هادفة من الطفولة والفقر في أمكنة مختلفة من العالم دون أن ينسى فناننا القدير بالاشارة الايحائية في خطوطه وألوانه الى الحضارة الانسانية بما يحمله ذلك من تداعيات في عصرنا الراهن.

ويتضح في لوحات الفنان تيسير بركات التنوع والتداخل الفني حيث تكاثفت وتعددت في فنه ألوان من الواقعية والانطباعية والتعبيرية والرمزية بأشكال ووجوه شتى تجعل المشاهد ومتذوق الفن شاهدا على أصالة وقدرة هذا الفنان في إيصال أفكاره ومشاعره وعواطفه واحلامه ورومانسيته أحيانا الى الانسان ذي الحس المرهف الذي يقدر الفن الرفيع.

وختاما، أهلا وسهلا بمعرض الاستاذ الفنان تيسير بركات في كفرياسيف التي تعتز وتفتخر به فنانا مبدعا من أبناء شعبنا يتحفنا بروائعه الفنية المعبرة راجين له دوام الصحة والتوفيق والمزيد من العطاء والابداع. وشكرا .

(القيت هذه المداخلة في افتتاح معرض"غبار، حوار ، حديد" للفنان تيسير بركات في صالة العرض التابعة لرابطة ابداع – كفرياسيف الاسبوع الماضي).

(كفرياسيف)
**د. منير توما**
الخميس 26/5/2011